يكن ، فقد كان منظرهم ومشيتهم لا يشهدان الا على قطيع خائف مذعن هامس متأوه ، ولا يحسن السؤال · ومع ذلك ، فقد كان من بينهم من يتوقع كل شر ، بل وربما كان من بينهم من يساوره الشك في القلب ، والغثيان المعتور في الاعماق ، دون ان يتكلم ـ ان ما ذلك الا اقتياد الى الاعدام ·

كانت المجموعة الاولى قد توقفت أمام الثغرة التي في السياج · من يدري ، فربما كانت قطعة الارض هذه لاحدهم · وان هذا المكان المجرد في اعيننا ، ما هو الا مكان محدد لديهم قريب من شيء ما وبعيد عن شيء ما ، وله من المعاني اكثر مما هو مجرد طريق ترابي كبير معين · علقوا بالشاحنات عيونا بدأت تدرك ما الذي كان قد حل بهم ، فالتفتوا الينا ، يتلمسون أيا من بيننا جميعا يمكن التحدث اليه ، او ربما يتلمسون فيه الرجاء · وسرعان ما انبرى من بينهم أحد الرجال بقمباز المقلم وحزامه الجلدي اللامع الابزيم ، وهو يرفع يسراه المعقوفة : اصابع رجل عامل تعطل عن العمل ، ويسعل قائلا شيئا ما · فصرخ بهم في الحال احدنا صوتا ، لا اعرف في الواقع كيف كان ، الا انه سمع حادا وصاحبنا اكثر مما كان ينبغي : « يا لله ، يا لله ! » والكتلة الآدمية المجهولة تلك سرعان ما تحركت وانحنت في الثغرة ، تعبر الواحد تلو الآخر ، يتابعون خطوهم في طابور واحد صاعدين ، في محاذاة سياج الصبار الواطيء ، ثم عادوا وخرجوا من الناحية الاخرى للبركة بالقرب من الشاحنة الاولى ، التي كان بابها الخلفي قد انزل ·

كان السائق ومساعده قد وقفا هناك يستحثان الصاعدين ، فيمدان يدا لهذا ويدا لذاك يساعدانه بدفعة ، يقولان كلمة لفلان ، يعقبان على ذلك السمين ، وذاك القذر الكبير قطعا ، او ذياك العجوز الثمانيني الآخر او التسعيني قطعا · والغريب ان احدا منهم لم يحتج ولم يعترض · بل تسلقوا مستسلمين للقدر صاعدين وتراصوا في الشاحنة ·

ـ « هوذا ! » كان السائق راضيا ·

ـ « عدهم ، كم هم لديك هناك ؟ صاحوا اليه من الجانب الآخر للبركة ·

ـ « كيف ذلك ، انهم لا يأخذون اي شيء معهم ؟ » سأل السائق ·

ـ « اي شيء ؟ » سألوه ·

ـ « اي متاع ، حرامات ، لست ادري ! » ·

ـ « لا امتعة ، لا شيء ، فلتأخذهم من هنا وليذهبوا الى الجحيم » ، أجابوه من جانبنا · ومرة اخرى كان هنالك ما يبدو سيئا وخاطئا ، الا ان احدا لم يتدخل ·

وهنا توجه الينا عربي من فوق الشاحنة فجأة ، ذلك المقلم اللامع الابزيم يخاطبنا :

ـ « يا خواجا ! (وصوته يشتد من خلال حديثه) ـ يا خواجات » ، مصححا لصيغة الجمع ، كي يخاطب الجميع ، ثم شرع في الحديث متكلما دون انقطاع ، مؤكدا ، شارحا ، وكأنه يقرأ من الكتب المقدسة ، وبشيء من حزم الواثق ببراءته ويستطيع اثبات ذلك ، الا اننا لم نفهم الكثير مما قاله · وكانت العينات والحاءات الحادة في مرافعته ، تنهال علينا غريبة كما لو كانت مضخمة واصواتا قائمة بحد ذاتها · وكان سكوتنا قد شجعه فراح يرفع يسراه دعما لدعواه · ويبدو ان همهمة بالموافقة كانت تتردد داخل الشاحنة ، بينما راحت العيون تترصد وقع الصدق في كلامه علينا · الا ان المجموعة